دراسة اللغة العربية

الفصحى في مدارسنا المصرية

لعبد الله أمين

أن الغرض من درس اللغة الفصحى في المدارس هو اقدار الدارسين على التكلم والكتابة بها وعلى القراءة الصحيحة وعليه فخير الطرق لتحقيق هذا الغرض هو أنْ تُدَرَّسَ ألفاظ اللغة المفردة الفصيحة الكثيرة الشيوع وأدبها الجيد القديم والحديث من شعر ونثر دراسة فهم وحفظ ومرازنة وتحليل ونقد ومحاكاة على النحو الآتي

المرحلة الاولى من التعليم العام

المرحلة الأولى من التعليم العام هي عندنا المدارس الأولية والمكاتب العامة والمدارس الابتدائية . وإني لمن أشد المتحمسين لإدماج المدارس الأولية والمكاتب العامة في المدارس الابتدائية وجعلها جميعاً مدرسة واحدة قومية خالية من اللغات الأجنبية . وأرى أنْ يكون تدريس اللغة العربية في هذه المرحلة على النحو الآتي :—

يختار للتلاميذ هذه المرحلة طائفة ملائمة لمداركهم من ألفاظنا العامية المحرّفة وتُقارن بأصولها الفصحى الصحيحة وتوزع توزيعاً ملائماً على سنوات هذه المرحلة الدراسية لدراستها وحفظ الصحيح الفصيح منها والتدرب على التعبير به في الكلام والكتابة بدل التعبير فيهما بالألفاظ العامية المحرفة . ويختار كذلك لتلاميذ هذه المرحلة مختارات من الأمثال والحكم والأغاني الشعبية والشعرية العامية وتُرد الفاظها العامية المحرّفة الى أصولها الفصحى الصحيحة ويصحح ما فيها من خطإ في الأسلوب وتوزّع هي الأخرى على سنوات الدراسة على أن تدرّس دراسة فهم وحفظ ومرازنة وتحليل ونقد على قدر مداركهم وعلى أن يدرّب التلاميذ على التعبير بها في الكلام والكتابة ويختار كذلك طائفة جيدة كثيرة من جيد الشعر والنثر العربي الفصيح الحديث ومن النوادر الحسنة وتدوّن في كتب مشكولة شكلاً كاملاً وتشرح ألفاظها وأساليبها في صلب الكتب لا في هوامشها شرحاً أدبياً واضح المعنى واضح الكتابة ملائماً

لمدارك هؤلاء التلاميذ لتدريب التلاميذ على دراسة الأدب وفهمه وتذوقه وعلى التعبير عن معانيه بعبارات شفوية بمحاكاة نثره وتنويع أساليبه وبنثر شعره ويُطالبون أحياناً بكتابة عباراتهم الشفوية على أن تُعَدَّ هذه الكتابة تدريباً على الإنشاء

تكون هذه الكتب الأدبية مادة المطالعة الجهرية والمحادثة والانشاء الكتابي . على أن يكون بجانب هذه الكتب قصص أدبية وكتب حديثة للمطالعة الصامتة على نحو الكتب المقررة للمطالعة الآن ، وهي كتب تشتمل على مباحث عامة في المعلومات العامة المحيطة بالاحداث وفي التاريخ والجغرافية والادب وغير ذلك

وتُقصر دراسة اللغة العربية في هذه المرحلة على هذا القدر من الدراسة فلا تشغل أذهان تلاميذها العصية بقواعد لا تقوى على إدراكها ولا على تطبيقها ولا تشغل كذلك بدراسة لغة أجنبية لتفرغ أذهانهم لادراك الفصحى وتذوقها وإساغتها وإشاعتها في المنزل والمجتمع فان هؤلاء الأطفال خير وصل الاذاعة والنشر

المرحلة الثانية من التعليم العام

يختار لتلاميذ هذه المرحلة من الالفاظ والأساليب العامية المحرفة مقدار صالح وتقارن بأصولها الفصحى الصحيحة وتوزع توزيعاً ملائماً على سنوات هذه المرحلة الدراسية (مرحلة الثقافة العامة) لدراستها وحفظ صحيح الفصيح منها والتدرب على التعبير به في الكلام والكتابة بدل التعبير فيهما بالالفاظ والاساليب العامية المحرفة . ويختار لها مع ذلك طوائف صالحة من جيد النثر والشعر العربي الفصيح لكل عصر من عصور الأدب وتشرح شرحاً أدبياً ملائماً لمدارك هؤلاء التلاميذ وفي أصلاب الكتب وبحرف كبير مشكول كالأدب نفسه على أن تستمر دراسة هذا وذاك في جميع سنوات الدراسة ويستمر معها تدريس تاريخ الادب العربي كله على أن يوزع على هذه السنوات توزيعاً عادلاً وان يكون موجزاً كل الايجاز

ولا يدرس في هذه المرحلة من علوم اللغة العربية الا النحو والصرف في كتب عددها على قدر عدد سنوات هذه المرحلة على أن يراعى في وضعها أن يكون كل منها جامعاً للمتين وعلى أن يكون الثاني مشتملاً على ما في الاول وزيادة والثالث مشتملاً على ما في الثاني وزيادة وهكذا على نحو كتب القواعد للمرحومين حفني بك ناصف وشركائه مع العناية بالتمثيل بأمثلة عصرية ولا يدرس من علوم البلاغة شيء الا في المرحلة التوجيهية لطلاب الآداب

ويختار لتلاميذ هذه المرحلة كتب للمطالعة الناطقة والصامتة من الادب القديم أو على غراره ومن الأدب الحديث ملائمة لمداركهم على اختلاف أسنانهم على أن تكون هذه الكتب مادة القراءة والمحادثة والكتابة وعلى أن تكون الألفاظ المفردة المختارة هي ألفاظ الأدب

المصري المصحح والعربي الفصيح والمطالعة وعلى ان تكون موضوعات الأدب والمطالعة هي هي موضوعات المحادثة والكتابة (الانشاء)

وفي دراسة الأدب نثره وشعره في هذه المرحلة وفي الفرق الاخيرة منها يحسن أن يناقش التلاميذ في المسائل الصرفية والنحوية الغامضة وفي المسائل البلاغية الواضحة كالتشبيهات والمجازات والكنايات الواضحة وكالتقديم والتأخير والقصر

وفي دراسة الأدب اذا ورد في ترجمة من التراجم ذكر للبديع فليس من الصعب شرح الواضح من محسناته كالجناس والاقتباس والتضمين

والقصد من ذلك تشويق التلاميذ الى دراسة هذه الفلسفة اذا بلغوا المرحلة التي تدرس فيها وهي المرحلة التوجيهية ومعرفة مقدار استعداد المتعلمين لهذه المرحلة التالية . ولا بدَّ في هذه المرحلة الثانوية من الاقتصار على لغة أجنبية واحدة

موازنة بين النظامين

إن بين النظامين النظام القائم الآن في المدارس والنظام المقترح في هذا المقال اتفاقاً من وجوه واختلافاً من وجوه

فأما وجوه الاتفاق بينهما فهي ان كلاً منهما يشتمل على دراسة الغاية والوسيلة ومقياسها . فأما الغاية فهي القراءة والكتابة والمحادثة باللغة الفصحى . وأما الوسيلة الى هذه الغاية فهي مفردات اللغة وأدبها من نثر وشعر . وأما المقياس فهو فلسفة اللغة او علوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وما اليها . فلا ينبغي حينئذٍ لأنصار هذه الفلسفة ان يجزعوا من النظام المقترح لأنهُ لا يزال محتفظاً بعمدة النظام القائم وهو دراسة علوم العربية او فلسفتها ولكن مع توزيعها توزيعاً عادلاً مثمراً

وأما وجوه الاختلاف بينهما فهي في ان روح النظام القائم هو دراسة علوم العربية او فلسفة اللغة او المقاييس التي تعرف بها وجوه الحسن والجمال فيها فالعناية فيهِ منصبة كلها على دراستها . وقد أثبتت التجارب ان هذه الدراسة لا تجدي في تحصيل اللغة الفصحى ولا يبقى من قواعدها في أدمغة دارسيها شيء بعد تركهم معاهد الدراسة أما ما عداها من غاية ، وهي تدريب التلاميذ على القراءة والكتابة (الانشاء) والكلام بالفصحى ، ومن وسيلة ، وهي دراسة اللغة نفسها من ألفاظ مفردة وأدبيات نثرية وشعرية فليس ، لها من عناية واضحي المناهج إلاّ بقدر ما لها من عناية المتعلمين والمعلمين وهو التبرم بهما والاعراض عنهما

وإن روح النظام المقترح هو الاعتماد في دراسة هذه اللغة الشريفة قبل كل شيء على دراستها نفسها بدراسة ألفاظها المفردة وأدبها الرائع من نثر وشعر مع العناية باللغة والادب

المصري الحديث وانسمو به الى مرتبة اللغة الفصحى ثم التدريب على الغاية من دراستها وهو القراءة والكتابة والتخاطب بها . أما دراسة فلسفتها وهي علوم العربية او المقاييس التي تعرف بها وجوه الحسن والاداء في اللغة في المرتبة الاخيرة بعد ان يتذوق المتعلمون اللغة ويتدربوا على قراءتها وكتابتها قراءة وكتابة سليمتين من الخطأ وحتى التخاطب بها ، ويشتاقوا الى تعرف وجوه الجمال فيها ويستأهلوا لادراكه

ومن وجوه الاختلاف بين النظامين ان ألفاظ اللغة المفردة التي تختار للدراسة في النظام القائم تختار اختياراً سيئاً وذلك بأن تختار أبواب برمتها من كتب اللغة المرتبة على وفق المعاني مثل كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب الالفاظ الكتابية للهمذاني . وفي هذه الابواب من الالفاظ الغث والسمين والحي والميت والفصيح والمستكره وما يقبح ذكره وما تمسّ اليه الحاجة وما لا تمسّ اليه الحاجة وهذا اختيار من شأنه ان ينفر المتعلمين والمعلمين منه ويصرفهم عنه . وإن المعلمين والمتعلمين ليرون في دراسة هذه الابواب إضاعة للوقت والجهد بدون ثمرة وليس أبعث على الانصراف من شعور الاستغناء والازدراء الذي يشعر به دارس هذه الابواب

أما في النظام المقترح فان دراسة الالفاظ تعتمد على الالفاظ الحية التي لا يستغنى عنها في كل لحظة من لحظات حياتنا وفي كل مكان نغشاه وهي ألفاظنا العامية المحرّفة ردّها الى أصولها الفصحى ومن العبارات النثرية والشعرية العامية بعد اصلاحها وهذه وتلك هي التي تكوّن المزاج العقلي والنفسي فينا فاذا حصّل التلاميذ من الالفاظ والعبارات العامية المصححة القدر الكافي ضموا اليها طائفة صالحة من الالفاظ العربية من كلمات الادبيات المختارة ومما يختاره مجمع فؤاد الاول للغة العربية

ومن وجوه الخلاف بين النظامين في الادب ان المختار من الادب في النظام القائم يتغير كل سنة ومنه ما يسمى محفوظات للحفظ وما يسمى نصوصاً للدراسة ثم هو مشروح شرحاً موجزاً في هوامش الكتب وخط دقيق غير مشكول كأنه شيء لا قيمة له لا يقرأ ولا يدرس إلاّ على أنه ليس مقصوداً لذاته . والمراد في النظام المقترح ان تختار الادبيات من الشعر والنثر لكل مرحلة وتشرح شرحاً أدبياً ملائماً في صلب الكتاب ويقصد لذاته فيدرس الشرح كما تدرس الادبيات ثم يترك للتلاميذ اختيار ما يحفظونه على وفق أذواقهم وميولهم فلا يقيدون منه الاّ باعداد البيوت والسطور لا فرق في الدراسة بين ما يحفظ وما لا يحفظ

ومن وجوه الخلاف بين النظامين في الطالعة أن الكتب المختارة لها في النظام القائم كتب تشتمل على مباحث في معارف عامة بلغة سهلة واضحة لتدريب التلاميذ على القراءة

الجهرية وأن الكتب المرادة في النظام المقترح كتب تشتمل على أدبيات نثرية وشعرية وطرائف من النوادر الأدبية مشروحة شرحاً أدبياً على نسق الكتب القديمة كالكامل والأمالي على أن تحرر من عيوبها كالاستطراد الطويل وكذكر أشياء لا ينبغي للتلاميذ أن يقرءوها وأن يكون بجانبها قصص راقية وكتب في مباحث عامة عصرية ككتب المطالعة الحاضرة للقراءة الصامتة . فكتب النظام الحاضر لتدريب الألسنة على القراءة الصحيحة والكتب المقترحة لتدريب الألسنة على القراءة الصحيحة وتدريب المدارك على فهم اللغة وأدبها

ومن وجوه الخلاف في المحادثة أنها في النظام القائم مقيدة في المرحلة التي هي فيها وهي المكتب العامة بموضوعات معينة تجعل محل محادثة ويراد في هذا النظام المقترح أن تكون المحادثة في مباحث كتب المطالعة لغرضين أحدهما ألاّ يكون للمحادثة درس معين تراعى فيه وتهمل في غيره بل تراعى في كل درس على أنها عنصر من عناصر التدريب الخطيرة التي تجب رعايتها دائماً لا في حصص محدودة في الأسبوع ، والآخر أن تدرس كتب المطالعة دراسة وافية بالرجوع اليها حين القراءة وحين المحادثة

ومن وجوه الخلاف في الانشاء أن دراسة الإنشاء في المدارس الآن كالخمر اثمها أكبر من نفعها لأن ما يجنيه المتعلمون من دراستها لا يساوي عشر ما ينفقهُ فيها المعلمون والمتعلمون من اوقات وجهود وما تنفقه الدولة من مال . إن هذه الدراسة لا تكاد تجدي فلا هي تجعل غير الصالح للكتابة كاتباً ولا تجعل الصالح لها بارعاً في الكتابة إن هي إلاّ آفة التدريس الكبرى التي يشقى بها المتعلمون والمعلمون ويشتغلون بها عن الدراسة المجدية وتذوّق اللغة إذ أنّ المدرس في التعليم الثانوي يعلم ثلاثة فصول فيغرق في بحر لا ساحل له من كراسات الانشاء والتطبيق فكيف يجد وقتاً وجهداً لبحث مسألة من مسائل العلم بحث تحقيق وقلما تخلو الدراسة من مسائل تعرض لا يطمئن لها القلب إذا لم يقتلها بحثاً واستقصاءً

قد يراد تدريب التلاميذ على الانشاء تدريبهم على الكتابة الأدبية أي النثر الفني . والنثر الفني كالشعر هو اللغة المثيرة للعواطف القائمة على ركنين أحدهما معنى شريف سام والآخر ألفاظ وأساليب وصيغة فخمة بحيث تثير عاطفة من العواطف كالفرح والحزن والرضا والغضب وغير ذلك

وهذا الضرب من الكتابة غير ميسور لجمهرة المتعلمين من وجوه . الوجه الأول : أن هذا الضرب يكون في الرسائل الاخوانية وقد ماتت هذه الرسائل في هذا العصر الحديث عصر العلم والسرعة وإن بقيت فانها لا تستحق أن تقيم لها الدنيا وتقعدها فتدرّب جميع أبنائنا على

الكتابة فيها . الوجه الثاني : ان النثر الفني يعتمد اكثر ما يعتمد على ذوق موهوب لا مكسوب كالشعر فمحاولة كسبه عبث . والوجه الثالث : أن هذا الضرب من الكتابة الادبية لا يمكن أن يدرك بدراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة وغيرها من علوم فلسفة اللغة التي جعلناها كل شيء في دراسة الفصحى ، وانما يدركها كل من نقل الادب درساً وفهماً وحصّل منه المقدار الكافي للاديب كأنْ يحفظ عشرة آلاف بيت وسطر من الابيات والسطور البليغة

وقد يراد بالانشاء ان يدرّب التلاميذ على الكتابة في الشؤون العامة التي تشغل بال المفكرين والقادة والزعماء من اقتصادية وسياسية واجتماعية وصحية وغير ذلك . وهذا الضرب من الكتابة يحتاج الى أن يضرب الكاتب بسهام صائبات في دراسة الشؤون الاجتماعية وأنّى يكون لاحداث المدارس وهم سجناء الدراسة الشاقة المضنية وآلات في أيدي الحداثة والصبا أن يكونوا على علم بهذه الشؤون وان يكتبوا فيها كتابة تفيض عليهم الدربة على اللغة العربية الفصحى

إن اوقات تعليم الانشاء في المدارس لتضيع في تزويد التلاميذ بمعارف تافهة يكتبونها وقد يزيد القليل من التلاميذ القليل من المعاني التي لا قيمة لها هي الأخرى وذلك بكد الذهن وبالجهد والمشقة . وبهذه الطريقة لا يمكن إدراك الغرض المقصود من تعليم الانشاء وهو تدريب التلاميذ على التعبير عما في أذهانهم من المعاني بعبارات سليمة من الخطإ والتعقيد مرتّبة ترتيباً منطقيًّا

وخير من هذا وذاك الف مرة الطريقة المبينة للانشاء في هذا النظام المقترح وهو ان يقتصر فيها على شرح التلاميذ النصوص الادبية وحلّ المنثور ونثر الشعر منها وكتابة موضوعات دروس المطالعة بعد ان يقتلوها درساً وبعد طي كتبها . وإن الهادي الموفق للصواب

سمعت بأذن قلبي صوت عتبي ... له رقراق دمعٍ مستهلّ
سمعت العاد قائلة : أأنسى ... وهذا موطني والاهل أهلي
ألست أنا التي بدمي وروحي ... غذّت منكم وأنعمت كلّ طفل
بنيّات الحمى بيّن الي ... عزيزة أمّتي لم يبس فضلي
ويا فتيانة ! هبوا لنصري ... أأرضى منكم جهد المقلّ
اذا ما القوم باللغة استخفوا ... فضاعت ، ما مصير القوم ، قل لي
وما دنيا حمى حرٍّ منيع ... بلا لغة وملكٍ مستقل

(خليل مطران)